تيمة الهجرة في الرواية المغاربية دراسة في نماذج مختارة

أ.فريدة دريدي

جامعة باجي مختار عنابة

faridadridi@yahoo.fr

ملخص

تسعى الدراسة إلى مقاربة تيمة الهجرة في الرواية المغاربية بالتركيز على بعض الروايات،وذلك بهدف الوقوف على ظاهرة هجرة الأفارقة نحو أوربا وملابسات هذه الهجرة ومعرفة أسبابها وتبعاتها ،وقد تبين لنا أن الهجرة كبعد مرجعي وتيمة سردية قد ارتبطت بحلم تحقيق حياة أفضل في بلد الحريات كما ارتبطت بمعاناة فردية للأفارقة في بلد أوربي لايعترف بالأقليات وإنما اعتمدت على فكر عنصري إقصائي.

الكلمات المفتاحية: تيمة –الهجرة– الأنا والآخر–العنصرية.

Summary;

The aim of this study; is to attempt to approach the theme of immigration in novels in the Maghreb countries by focusing on some novels in order to better understand the African immigration phenomenon towards Europe and its circumstances and find out its causes and consequences. We found that immigration as a reference dimension have been associated with the dream of realizing a better life in "The countries of freedoms" but is also linked to the individual suffering of Africans in these countries which do not recognize minorities but rely on racist dogmas.

Key words:

The immigration -the ego and the other- the racism- the alienation.

مقدمة:

أدت الكثير من الأحداث العالمية كالاستعمار والحروب العالمية والتطورات الاقتصادية وتصاعد المد العالمي مع نهاية الاستعمار الحديث للدول الافريقية، إلى توفير ظروف وعوامل ودوافع الهجرة من موطن إلى آخر، وتتم عملية الهجرة بطريقتين إحداهما تكون بطريقة قسرية إلزامية مثل: تجارة الرقيق والحملات التبشيرية ،وأخرى تكون بصورة اختيارية من أجل تحسين ظروف المعيشة وبحثا عن مصدر لحياة أفضل وانطلاقا من هذا أردنا بحث ثيمة الهجرة في الرواية المغاربية بهدف الوقوف على أسباب ودواعي وتبعات الهجرة على الفرد والمجتمع ،ومدى تأثيرها على طبيعة العلاقات بين الأوربيين والأفارقة على وجه الخصوص ولذلك: فماهي أشكال الهجرة التي تناولتها الرواية العربية؟ وماهي الأسباب والدوافع التي أدت إلى ذلك؟، وتعد الهجرة وتبعاتها من ممارسة الفكر العنصري وإقصاء الذات الإفريقية وتهميشها، بداية للدخول في صراع بين الحضارات حددت معالمه طبيعة العلاقة بين الأوربي والإفريقي التي اعتمدت منذ البداية على مبدأ التفوق والمركزية مقابل التدن والإقصاء والتهميش، ولذلك يمكن توضيح طبيعة الصراع القائم بين الأوربي والإفريقي في الرواية المغاربية ومدى تقبل الآخر الأوربي للأنا العربية الإفريقية والدعوة إلى الحوار بين القطبين، ويمكن شرح ذلك اعتمادا على مرجعيات فكرية وثقافية وسياسية وظفتها الرواية المغاربية في بحث العلاقة بين الأنا العربي الإفريقي والآخر الأوربي، عبر مسارات سردية تؤطرها لغة مبنية على التعددية في مستوياتها السردية والضمنية لتسائل الواقع المضطرب والذي يطرح بداية تشكل علاقات جديدة مبنية على الحوار والتقبل والاعتراف بالآخر مهما كانت ظروفه.

1/تيمة الهجرة في الرواية المغاربية:

عبرت الرواية العربية المغاربية على وجه الخصوص عن ظاهرة الهجرة بشكليها الشرعي وغير الشرعي ولهذا كيف تناولت الرواية المغاربية ظاهرة الهجرة؟ وما هي دوافعها؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات.نرصد أهم الأفكار

ودلالتها على هذه التيمة انطلاقا من نصوص روائية تناولت ظاهرة الهجرة بشكل موسع وبصورة أدق،وأخرى تناولت ظاهرة الهجرة انطلاقا من رصد عوامل التأثير والتأثر بين المجتمعات العربية والأوربية

تناولت الرواية المغاربية تيمة الهجرة بإسهاب من خلال تحليل وشرح أسباب الهجرة حيث توافد الكثير من أبناء شمال إفريقيا إلى أوربا طمعا في تحقيق الأفضل وتحسين ظروف المعيشة لأنه لم يحصل في بلده على أدنى فرصة تمكنه من العيش الكريم فبعد الاستعمار غرقت هده الدول في بوتقة من الفقر وانعدام فرص العمل بسبب ضعف الإنتاج والدمار الذي لحق بها على مستوى جميع الأصعدة وقد شهدت الساحة الإبداعية نوعا من الهجرة خاصة بهجرة الأفارقة السود إلى أوربا عبر المغرب العربي بسبب القرب الجغرافي بين البلدين باحثين عن ظروف عيش أفضل وهنا يشرح الروائي **مصطفى الغتيري** أسباب الهجرة فربطها بكسب المال أو زيادته أي الثراء الفاحش فيقول بطل الرواية معلقا على هدا الوضع ‹‹الهجرة إلى أوربا تهيمن على عقول الناس ؛وهدا من حقهم إنهم يتوقون إلى ظروف عيش أفضل أو كسب مزيد من المال ليعودوا به إلى بلدانهم والمغرب بحكم قربه من أوربا أضحى وجهة مفضلة للأفارقة الحالمين بالهجرة››[1]

لم يقتصر الروائي على توضيح أسباب الهجرة بل نجده يعقد مقارنة بين ما تتوفر عليه المغرب كبلد إفريقي من منشآت وما تطرحه من ظروف عيش رغيدة انطلاقا من اقتصادها الذي يعتمد أكثر على السياحة لجلب العملة الصعبة وبين جنوب إفريقيا التي تعد من أبرز المناطق الأكثر فقرا والأسوأ معيشة في العالم، وهذا ما شرحته كريستين من خلال نظرتها إلى إشكالية الهجرة كبعد اقتصادي يمكن الدولة المهاجر منها إلى أوربا من تطوير اقتصادها عن طريق توفير العملة الصعبة التي يجلبها هؤلاء فبالرغم ما يعانونه من ظروف صعبة إلا أنهم يعودون بالإيجابية على اقتصاد بلدانهم ويعتبر المغرب مثالا بارزا على دلك فتقول ‹‹المرأ دائما يطمح إلى الأفضل لكن ثق بي فما تتوفرون عليه يلزمنا نحن مثلا في بلدنا عقودا للحصول على مثله... ثم يثيرني حب المغاربة لبلدهم أقصد بالخصوص المهاجرين إلى أوربا إنهم يجلبون ثروة حقيقية من العملة الصعبة إلى بلدهم››[2]

يحيل هذا القول على مفارقة صعبة ذات بعد جدلي كون حكم الهجرة بالنسبة إلى أبناء المغرب لم يعد أنانية فردية، أو كرها وابتعادا عن موطن حرم مواطنيه من أدنى ظروف عيش، بل هو حلم من أجل المساهمة في تطوير الوطن ولعل هده الفكرة أو الطرح يعد استثنائيا يثير الدهشة والإعجاب من طرف المتلقي، ليدخل في حوار مع النص مبني على كشف العلاقة السردية التي ساهمت في تطوير بنية النص الروائي،وهنا نستطيع القول أن رواية ليلة إفريقية أعطت لموضوع الهجرة بعدا اقتصاديا، جعلت من المهاجر أداة فاعلة يمكنها أن تدير عجلة اقتصادها نحو التطور ،فإذا كانت الهجرة بالنسبة للنصوص الأخرى ترتبط بفكرة مقاطعة الوطن لأسباب ذاتية يحاول المهاجر من خلالها بناء نفسه وتحسين ظروفه المادية لكسب الثروة فإنه هناك من يرى في الهجرة سبا من أسباب تطور الاقتصادي الافريقي من أجل جلب العملة الصعبة وتقليل نسبة البطالة ولهذا نستطيع القول أنّ النّص الرّوائي قد قام بتحليل الواقع السيّاسي الاستعماري التي عانت منه القارة وكذلك الواقع الاقتصادي المزري وربطه بالواقع الاجتماعي والتّوجّه الفكري والإيديولوجي لفئة الشباب الافريقي الراغب في التغيير ، وهذا ما جعل النّصّ أكثر ارتباطا بالواقع الحقيقي ومرجعيّات الكاتب، بحكم أن الرّوائي قد عايش تاريخ الأزمة والصراع الإيديولوجي والسياسي الافريقي والأوربي وكان أكثر قربا من الأحداث وملمّا بجزئيّاته التي يجهلها الكثير ولذلك فإنّ: « رؤية العالم تجعل من الواقع خارج النّص وتكوين الكاتب إطارا مرجعيّا وبهذا تدخل قوانين الواقع وقوانين النفس كعناصر مفسّرة ومؤوّلة للحقيقة الأدبيّة أو حقيقة النّص»[3]

أعطت رواية ليلة إفريقية لتيمة الهجرة تطورا أكثر عمقا وتحليلا لتجعل منها ضرورة فعلية لتطوير الاقتصاد من خلال جلب العملة الصعبة، ولهذا تظل المخيلة الروائية تأخذ من الواقع مادتها السردية لتعيد بناءها بأسلوب درامي يتداخل فيه الواقع بالمتخيل ولذلك فالبنية السردية للرواية:«لا تعكس الواقع بشكل مباشر ،وإنما تشكل رؤيةجدلية تتكون من الفني والمرجعي» [4] ولقد عرفت تيمة الهجرة في الرواية العربية والمغاربية على وجه الخصوص انطلاقا من فكرة خرق القانون واتباع أساليب غير شرعية في الهجرة فارتبطت الهجرة بشكل أوسع بالهجرة الغير

شرعية التي تعطي للأوربي الحق في اقتصاد المهاجر لأنه لم يلجأ إليها بشكل قانوني وهنا تأخذ الهجرة أبعادا أخرى تجعله مقصى من الانتماء إلى أية جهة فيصبح مجهول الهوية ومبتور الانتماء لأن القانون يمنحه حرية أوسع وتقبلا لابأس به من طرف الأوربيين وبالتالي على المهاجر أن يكون مهيأ للدخول في محاورة مع بلد أجنبي ليتمكن من تبني هوية جديدة وشخصية جديدة وهدا ما جاء على لسان شخصية عيسى الإيطالي الذي تظاهر بأنه تونسي لكي يكشف الخلية الإرهابية في إيطاليا وبالتالي يمثل عيسى (كريستيانو) موقف الأوربيين من الهجرة الغير شرعية وكيف على المهاجر أن يهيأ نفسه قانونيا وإداريا لكي يتمكن من تحقيق الانتماء الشكلي إلى أوربا قائلا ‹‹أريد أن أطمئن على هويتي الجديدة فقط فدون وثيقة الإقامة أنا مهاجر غير قانوني قد أتعرض من هدا البلد الأمين في أية لحظة حفظت عن ظهر قلب جميع المعلومات الإدارية الجديدة(...)لا بد من الغوص في الشخصية الجديدة›› [5].

ولهذا تمنح الهجرة الغير شرعية للمهاجر فرصة الدخول إلى أوربا ولو دخل إليها يبقى

دائما مطارد وفي مركز اتهام اما المهاجر القانوني يمكنه أن بعيش حياة عادية بل لهم تراخيص وحقوق يمنحها لهم البلد الأوربي وهدا ما يدل على ديمقراطية الأوربيين والاعتراف بالآخر مهما اختلف عنهم ولكن في ظروف قانونية وشرعية ‹‹أما المهاجرون القانونيون فإنهم يستفيدون من تخفيض الإيجار بمقدار خمسين يورو هدا من كرم تيريزا وتمييزها العنصري ›› [6].

وهنا يعطي الكاتب صورة عن ديمقراطية إيطاليا كشعار يوحي بتحقيق العدالة الاجتماعية ومنح الحقوق للمهاجرين في حين تبقى إيطاليا منبعا للهجرة للتمييز العنصري وإقصاء الذات العربية الإفريقية .

لم يعد الإفريقي الاسود مرفوضا فقط في أوربا بل حتى أبناء جلده من أفارقة الشمال أصبحوا لا يطيقون هؤلاء امتدادا للفكر الأوربي المتعسف و المتعصب فالكثير من الأفارقة عانوا أبشع أنواع الظلم والقهر وعدم التقبل في البلدان العربية رغم ما يربطها بهم من أواصر قوية وامتداد بشري وهدا ما يسرده الراوي:‹‹ وبين لحظة وأخرى

أحدث أمل عن إفريقيا ومدى الظلم الذي عانت منه (...) وعن التجاهل الذي تعاني منه من طرف الجميع حتى من الدول العربية التي تجمعها بها أواصر قوية وامتداد بشري وثقافي ››[7].

شرح الراوي ظاهرة وساطة المغرب لهجرة الأفارقة السود باعتبارها معبرا ينفذ منه هؤلاء إلى أوربا فيصف هذه الظاهرة ومدى معاناتهم في المغرب كبلد إفريقيا من ظلم واحتقار:‹‹ الأفارقة يملؤون الأزقة بحثا عن فرصة للهجرة نحو أوربا، وهم يعانون من ويلات عدة ››[8]

يوضح الراوي معاناة الأفارقة في مدن المغرب المختلفة ويضع الفتاة كريستينا مثالا واضحا على ذلك من خلال رفض المجتمع المغربي لها بداية بالنظرة الاستفزازية والعنصرية التي كانت تعاني منها جرا لون بشرتها لأسود وصولا إلى رفض زواجها من ذلك الطبيب فقررا الهجرة إلى أوربا أين يجدن مجتمعا أكثر تقبلا ل لاقتهما إضافة إلى معاناتها المادية أمام غلاء المعيشة في بعض المدن مقابل الرخاء الموجود في مدن أخرى، وبهذا كانت المغرب صورة لبلد المتناقضات (غلاء مقابل رخاء)و(تقبل مقابل رفض) للإفريقي وهذا ما عبرت عنه رواية ليلة إفريقية:«الحياة في مدينة سطات أكثر بساطة أو في متناول طالبة مهاجرة مثلي ... أما في الدار البيضاء أو الرباط فالحياة صعبة .. الغلاء الفاحش في المدينتين(...)غلاء مستعر في كرا الشقق ومحنة في وسائل النقل »[9]

وبالرغم ما عانته كريستينا كنموذج للإفريقي الأسود في المغرب، من رفض وعدم تقبل واحتقار إلا أنها ظلت متسامحة ورأت أن النظرة الاقصائية التي تعاني منها ما هي إلا رد فعل صريح ومحتوم وعادي في ظل الظروف الراهنة، كون المهاجر يبقى دائما في صورة مهاجر يفتقد إلى الانتماء، ولا يمكن أن يتمثل هوية البلد الذي حل به مهما ساعدته الظروف المادية والاقتصادية على تخطي مشاكله الذي عانى منها قبلا في وطنه، وغادر وطنه من أجل حلها فتحقق له ذلك، ويظهر كل هذا انطلاقا من إجابة كريستين لما سألها البطل عن انطباعها: «هل تعانين من صعوبات في التأقلم مع المغاربة ؟

لا أبدا .. هناك بالطبع صعوبات بسيطة وعادية، يوجد مثلها في اي مكان من العالم .. المهاجر يبقى مهاجرا حتى وغن حلت كل مشاكله»[10]

عدت رواية مأوى جان دولان من أبرز الروايات التي طرحت جدلية الأنا والآخر انطلاقا مما يحمله متنها السردي من ثنائيات متضادة، تعكس العلاقة المضطربة بين أوربا وإفريقيا ،وتشرح هذه العلاقة بأساليب سردية توحي بنوع من القوة والجدية مما جعلها تكتسب طابعا خطابيا مثقلا بالأوامر وفق أسلوب خطابي سياسي يشرح معاناة المهاجرين ،ويوحي بنوع من التكاثف والتعاون والتآزر بين المهاجرين العرب قد يفتقده الفرد العربي بين أهله في وطنه الأم فالإحساس بالغربة يولد نوعا من التعاون فتذوب معها مختلف الخلافات وتختفي الفوارق وتبطل الصراعات ليتوحد صوت واحد مدافعا عن الحقوق، ولعل موقف سكان المأوى مع تلك الفتاة العربية التي تعرضت للسرقة في المحطة لذليل أوضح على قوة الروابط والتلاحم الموجود لبن المهاجرين ،فعبر الروائي عن هذا الموقف بأسلوب خطابي يشرح تلك المعاناة ويقترح الحل بأسلوب يطغى فيه الواجب والمسؤولية على المصلحة الذاتية فيقدم خطابه بنبرة حادة آمرة وكأنه خطاب سياسي ينادي بواجب وطني وجب تأديته:«سيداتي،أوانسي سادتي،

هنا بيننا مقيمة ، هي في ضائقة، استلمت ستة شهور منحة (نقدا) لتربصها للإنتهاء من الماجستير(...)سرق منها في محطة الميترو،وجدت نفسها بدون مورد مالي .

نوجه هذا النداء إلى حسن فهمكم وأريحيتكم لتساعدون في جمع مبلغ يسمح لها بإنهاء تربصها في ظروف مقبولة.

ندعوكم لوضع مساعدتكم في مكتب مدير الدار(...)

لجنة الحي(المأوى)تقول للجميع شكرا»[11]

وتظهر فكرة تقبل رفض الإفريقي المهاجر في المغرب من خلال تعايش كريستين مع أبناء المغرب محاولة الاندماج مع هؤلاء من خلال التعرف بالثقافة الإفريقية والاعتراف بضعف اقتصادها كمبرر للهجرة والعيش في

هذا البلد وما هذا إلا دليل واضح على أن ما كانت تعيشه في بلدها أدهى وأمر مما تمر به في المغرب من تهميش وإقصاء فتقول بروح منكسرة وبنبرة تتوسل فيها منح فرصة أفضل لتشعر بنوع من الانتماء والحرية لبلد يربطها به عناصر مشتركة وتتحدى كل هذا لتخرج في النهاية الموقف حتمي يبرر وجودها «لا بد من التحمل للاستمرار في هذا البلد»[12]

وبالمقابل رغم ما يعانيه الإفريقي من إقصاء وعدم تقبل من طرف بعض طبقات المجتمع تظل طبقة المثقف تحمل هموم تحقيق الوحدة والإنسانية لنرى في هذا الرفض ضربا من التحدي على حقوق الإنسان وتحاول أن تصلح الوضع بطريقة سلمية واعية فكان الراوي أو بطل الرواية هو المتقبل الوحيد لكريستين فكان حاميا لها وأكثر قربا منها، لتشعر كريستين أن هناك معنى للإنسانية في المغرب، وتلعب فئة المثقفين في أي مجتمع كحاكم ومشرع قوانين الإنسانية وتطبيق المساواة، فقد انتقد بطل الرواية واقع إقصاء السياسة المغربية للأفارقة السوج وحرمانهم من تحقيق حلمهم عبر حدودها للانتقال نحو أوربا الفردوس المفقود عند هؤلاء فيقول : «فقط كنت أتمنى أن يلعب لمغرب باعتباره بلدا إفريقيا دور دركي الحدود لأوربا» [13]

ولذلك بلغت رواية ليلة إفريقية حدا من الصراع بين طبقات المجتمع من أجل إعطاء المهاجر الإفريقي حقوقه المفقودة لتحقيق حلمه، ولم يجد سوى شعارات المثقفين التي تنادي بحرية هؤلاء وحقهم الطبيعي في التقبل من طرف بلد جمعته به ظروف مشتركة .

تعتبر رواية "مأوى جان دولان" لعمر بن قينة من أم المغاربية التي ركزت على تناول موضوع الهجرة بصفة عامة، كما أشارت إلى وضعية الأفارقة السود في فرنسا وموقفه من رجل إفريقيا أسود البشرة فكانت نظرية مشبعة بالحقد والضغينة وهنا يشرح الفكرة من خلال نظرة برنار (الفرنسي) الذي كان خارجا من (مأوى جان دولان) حيث صادفه إفريقي أسود البشرة عندما شعر الإفريقي السود باستياء الفرنسي برنار من رؤيته ووجوده الفعلي، وهو يوحي بإقصاء الذات الأوربية للآخر الأسود :«ليدرك جيدا معنى تلك النظرة المشبعة بتخوم من الضغائن

والأحقاد، فبادر بالسؤال ردا عن نظرته الحادة المفعمة ضغائن : ماذا؟ هل آذيتك» [14] وبالنظر لما يحويه هذا الخطاب من حقد دفين وقسوة ظاهرة أجابه الإفريقي عبر نظرة كانت «مشحونة بمشاعر الأشياء والمقت أدركها المواطن الإفريقي جيدا فشحنه أكثر بمشاعر السخرية والأشياء فقال وعيناه شرر في اتجاه برنار أنا خير منك ومن كلبك مجتمعين (...) أنت قادورة في أعماقك، أعماقك نتانة» [15]

ومن خلال هذا الحوار نشعر بنوع من الحقد الدفين بين الطرفين فكلاهما يحاول أن يتجنب الآخر ونجد نقمة الإفريقي على الأوربي أشد لدرجة أنه وصفه بالقاذورة والنتانة وجعله يبلغ درجة الحيوانية في موقفه إزاء الفرد الإفريقي ويقوم بشرح معنى الإنسانية والسعادة الحقيقية في مجتمع المغربيات فسعادة الروح لا تتحقق إلا بإنسانية الفرد وتسامحه وتصالحه مع الآخر، وأن مظاهر الأشياء لا يوحي بالبهاء إنما صفاء الروح والسريرة هما اللذان يعطيان للإنسان قيمة وتفردا في المجتمع وقد وجه ذلك الإفريقي في هذا المضمار رسالة سامية وراقية للأوربي ركز فيها عن معنى أن تكون إنسانا فالإنسان بروحه وعواطفه لا بم يملك قائلا له :« عليك ممارسة نظافة الروح قبل نظافة الجسد، وأن يعرف أن الآخرين مثله وليس دونه، كما أن شفاءه رهن بالخلاص من إحساسه بالتفوق، وسيشعر بالسعادة الحقيقية حين يدرك أن سعادته لا تتم في غياب سعادة الآخرين .. ما لم يصل إلى هذا المستوى فإنه لم يصل بعد إلى مستوى البشر» [16] .

وبتبني وممارسة الفكر الأوربي للعنصرية ضد الوافد العربي والإفريقي المهاجر إليها، ظلت نقمة الإفريقي وحقده يزداد ويتطور في صورة لا وعي حقيقي يحاكم الواقع المأساوي الذي شارك فيه الأوربي ضغطه التام على الإفريقي، ولكن تظل إفريقيا مكانا وملجأ للبعض وملاذا حقيقيا يسترعي فضول الباحث عن لحظة راحة وأمان، حيث يلقي الراوي حدود المقارنة بين أوربا وإفريقيا ليجعل كلاهما في مقام الآخر ويربط موقفه بمفهوم السعادة كمطلب فعلي لبشر مع ما كان انتماءه فالحياة يمكن أن تعطينا السعادة وتلبي رغباتنا دون اعتبار للمكان، فأوربا بالنسبة لغيره مصدر سعادة، وإفريقيا مصدر حزن وابتلاء أما بالنسبة للراوي فكلاهما واحد، حيث يقول:«وسواء أكان ذاهلا

في بحثه عن طريقة شريدة ينغص السعي وراءها حياته، أو حالما بلحظة سعد في إفريقيا أو في أوربا في ظل شكره فالصدمة العنيفة ألقت به حالا في الوعي التام (...) عيناه زائغتان كأنما تطاردان شبحا أو تبحثان عن حلم في أدغال إفريقيا أو في صحاريها، أو في ربوع أوربا و "جناتها"»[17].

ارتبطت جنوب إفريقيا بتيمة الأدغال والصحاري التي لا تمنح للفرد سوى الضياع والخوف والظلام والسراب والتحدي في ظل الغموض والتساؤلات التي تطرحه هذه الأماكن أو الفضاءات، أما أوربا فقد ارتبطت بالفردوس والجنات والربوع التي توحي بالعلم وتحقيق أرفع وأفضل المكانات والرتب داخل المجتمع .

وبالمقابل يعطي الروائي صورة استثنائية تشرح العنصرية ومبدأ التفرقة التي تمارسها على المهاجرين في ظل انتشار الرذيلة وأعمال العنف والشبهات ظل المتهم الوحيد هو العنصر المهاجر ولو لم يكن طرفا في هذه القضايا والمؤامرات، فيقول الراوي:«ليس هناك انسانية في باريس..في باريس الخطف والنصب والمؤامرات..الشخصية والدولية وضروب الإيقاع والكيد فيها الإجرام الأكثر(...)باريس غابة..طغى فيها الشر على الخير..والشبهات في كل شيء..باتت الشبهات حتى في نسمة الهواء»[18].

وتنم رواية مأوى جان دولان عن فكر تحرري الاستعباد والواقع المأساوي الإشكالي، ويرى في الهجرة حلا أسهلا وأقرب لتحقيق أحلام الفرد المهاجر باعتبار أوربا بلد الديمقراطية والحرسية والمساواة وهذا ما علقت عليه زخروفة انطلاقا من موقفها الإيجابي من الأوربيين مقابل ما يعانيه الفرد العربي من تخلف وانعدام الديمقراطية:«تحيا الصراحة الفرنسية ،تحيا الحرية الحرية الفرنسية، وديمقراطية الفرنسيين(...)حررونا من أفكاركم كفانا عبودية دعونا ندق طعم الحرية »[19]

لم تبتعد رواية مأوى جان دولان عن كونها فاعلا أساسيا في إثراء الساحة الإبداعية الجزائرية بنص سردي يطرح قضايا راهنة، أبرزها موضوع الهجرة إلى أوربا، حيث شرحت هذه الرواية مشاكل المهاجرين من العرب والمسلمين

المتواجدين في أوربا وفي فرنسا بالتحديد، كما تشرح مدى تأقلمهم مع المجتمعات الأوربية إلى حد يمكنها التأثير والتأثر والتعايش داخل هذا المزيج الانساني باختلافه الجنسي والعرقي والديني والحضاري، فجاءت رواية مأوى جان دولان لتعرية وكشف حقيقة نظرة الفكر الغربي المتحضر للفرد العربي المسلم واعتباره كائنا يهدد استقرار وامن المجتمع الاوربي ،كما تتطرق إلى معاناة المهاجر العربي المسلم والإفريقي إلى بلاد الغرب ، وطريقة مكافحته ومعاناته للحصول على رزقه، ولذلك ترتكز رواية أن ترحل على مقولة مفادها، الرحيل من الوطن ولذلك ظل الروائي ينادي بتيمة الرحيل أو الهجرة ؛والرحيل يعني ترك كل صلاتك بوطنك والتنكر لها وقطع الصلة الدائم بها دون رجعة فيقول الراوي حالما بالرحيل في كل مقطع من مقاطع الرواية:«الرحيل عن البلد كان هاجسه الأفضل(...)أن يرحل ان يغادر هذه الارضالتي تتنكر لأبنائها»[20]

ظل حلم الرحيل هاجسا يؤرق الروائي في كل صفحات الرواية حاملة في طياتها هدفا وحيدا يتمثل في تحقيق حياة أفضل لم يحض بها في وطنه ولذلك فالمسألة:«التي تستبد بتفكيره، أن يرحل أن يولد من جديد في مكان آخر بعيد،أن يرحل بأية وسيلة(...)أن يركض على الرمل صارخا ملء رئتيه، أن يعمل، أن يحقق،أن ينتج، أن يتخيل، أن يصنع شيئا من حياته»[21].

عبر بطل الرواية من خلال رفضه للانتماء إلى وطن لم يعط لشبانه سوى ظروفا اجتماعية واقتصادية سيئة ،وبذلك أصبحت هذه الفئة ضحية للفساد الأخلاقي والتمرد،ومعايشة ظروفا اقتصادية سيئة جعلتهم يتخبطون في شبح البطالة والفقر والفاقة ولم يرجع بطل الرواية هذا التردي الاقتصادي إلا لسبب واحد وهو فساد الحكم السياسي وانعدام الديمقراطية والعدالة،فيرى أن هؤولاء الإسبان الذين يلجأ إل بلدهم الكثير من المهاجرين المغاربة من أجل تحسين ظروفهم المعيشية، كانوا منذ زمن يعيشون ظروفا اقتصادية سيئة ، وقد حلت مشاكلهم بعد رحيل الزعيم فرانكو أين بسطت الحريات وعمت الديمقراطية ، وهذا ما أثر على نشأة وتطور الاقتصاد فعم الرخاء وسادت الحرية في وطن افتقد لكل هذه المعايير واسترجعها بعد كفاح طويل دفع ضريبته ثمنا غاليا،وبهذا يرى

الروائي أن حلم الرحيل من أجل التغيير والتطوير للظفر بفرص حياة أفضل لا يعتبر حلا لمشكلات المغاربة بصورة نهائية بل يزيد الطين بلة ويغرق أبناء الوطن في قضايا الفساد والتهريب التي ألفها الأفارقة الذين يعبرون الرباط لأجل المرور إلى إسبانيا فيقعون فريسة للعصابات والمافيا، التي تقوم بسرقة ممتلكات الدولة لتبيعها بأبخس الأثمان إلى الاوربيين وهذا أكبر جرم يمكن أن يمارسه الفرد في حق أبناء وطنه، فكيف لنا أن نسهم في هدم اقتصاد أمة تنتمي إليها ماديا وروحيا،لنكون طرفا فعالا في بناء اقتصاد أمة انتهكت أعراضنا واغتصبت أرضنا في زمن مضى، ولهذا السبب أصبح الروائي يرفض فكرة الهجرة أساسا،لأنه يرى أن الحل الوحيد لمشاكلنا يبدأ من أنفسنا ، لأنه بالرحيل إلى أرض إسبانيا سوف يفتقد الكثير من الافارقة جزءا من هويتهم بعد تلقيهم لثقافة الغرب تلقيا سلبيا يسهم في تكوين شخصية مضطربة لاتعرف أين انتمائها الحقيقي فيقول الراوي:«يخيل إليك أنك بالهجرة تجد حلا لمشكلتك،ولكن ما إن تطأ قدماك تلك الارض،هذا إذا كتبت لك النجاة، وأنت تحاول حتى تفتقد بلادك وثقافتك ودينك،نحن نعارض الهجرة، شرعية كانت أو غير شرعية لأن مشكلاتنا تتطلب حلولا منا،هنا الآن ولا تتكل على الآخرين لإيجاد الحلول لها بدلا منا»[22]

تخلى عازل مقابل الاحتكاك والتقرب من الاوربيين عن أخلاقه وانتمائه الروحي، كما تخلى عن رجولته بعدما احتك بميكال الإسباني الذي استغله جنسيا مقابل المال، والحصول على وثائق تمكنه من العيش بحرية في إسبانيا أين يحقق أحلامه المفقودة، والذي ظن أنه سيجدها على أرض أوربا لتقدم له مقابل فقده لشخصيته بكل ملامحها ومعاييرها الأخلاقية المستمدة من مجتمعه ودينه والتي تحقق انتمائه الفعلي، وهنا أصبح عازل منكسرا وفاقدا لمقوماته أمام مجتمع يرفضه ويرفض انتمائه إليه وما نظرة الأوربيين لعازل داخل المجتمع الأوربي إنما تلخص موقف الأوربيين من الأفارقة والعرب بصفة عامة، وتعبيرا عن هذا الموقف يعلق عازل بنبرة حزينة مثقلة بمشاعر الحيرة والاضطراب والندم الناتج عن انكسار الذات الإفريقية الإسلامية العربية وانشطارها وانقسامها لتعبر عن هوية مضطربة وذات منكسرة وناقمة على وضعها الجديد والمتردي والمهزوم:«أما أنتم فمرادكم الفرار، الرحيل،

مغادرة البلاد،الذهاب إلى أرض الأوربيين، لكن الأوربيين لا ينتظرونكم(...)تظنون أن العمل متوافر هناك والرفاهية والجمال والأناقة،ولكن هناك سوف تلاقون يا إخوتي التعساء ، الحزن والعزلة»[23] .

ولهذا كان موقف الأوربيين من المهاجرين الوافدين إليها ينم عن رفض قاطع لهذه الفئة المنبوذة داخل المجتمع الاوربي فيقول الراوي معلقا على الوضع:«ثم كيف يتهمونه بانه مهاجر؟ هل الهجرة جريمة؟ أنا لا أفهم لماذا يكرهون المهاجرين بهذا الشكل؟»[24]، كما مثلت صفة المهاجر في بعض الروايات كدليل على الإجرام والنزوع نحو التمرد، وهذا ما عبرعنه عمارة لخوص في رواية كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك،عندما اتهم أحد الشخصيات العربية الذي تقمص هوية وشخصية إيطالية وهو أميديو بأنه المنفذ لجريمة القتل التي جرت في مصعد العمارة المتعددة الجنسيات والتي يقطنها هؤلاء المهاجرين،ولكن الأغلبية يرون أنه مستبعد عن الجريمة لأنه إيطالي راقي في طريقة تعهامله مع الجميع ،إنه نموذج للفرد الإيطالي المسالم والمتسامح مع المسلم ومع المسيحي ومع الوضعي ومع المهاجر ومع الإيطالي،ولذلك ظلت تيمة الهجرة في الفكر الأوربي مرادفة للتمرد والإرهاب،ولعل هذه الفكرة وليدة العصر كون المهاجرين الأفارقة أصبحوا يتوافدون على أوربا بطريقة خيالية وبالتالي أكد الروائي باتهام منفد الجريمة ليكون واحدا من المهاجرين الأفارقة في ظل ظروف غامضة، وكأن الراوي أراد أن يوضح موقف الأوربي من الإفريقي، الذي كان ولا زال عنوانا للإجرام والوحشية ، فما من حادث يقع إلا وكان المتهم من المهاجرين فيقول الروائي على لسان أحد الشخصيات:«أنا متأكد من أن قاتل الشاب لورانزو مانفريدي هو واحد من المهاجرين ،يجب على الحكومة أن تتصرف بسرعة عما قريب سيطردوننا من بلدنا»[25] .

يتحدث الراوي عن الهجرة كمشروع مهيمن غلى أفكار الكثير من الشبان في البلدان العربية والإفريقية،وبالتالي صورت رواية عمارة لخوص القاهرة الصغيرة،ما يثيره المهاجر من شفقة بين الإيطاليين، وبالمقابل يصف مشروع الهجرة كقيمة مهيمنة تسرد واقعا محتملا للأفارقة في أوربا إنه واقع افتراضي إقصائي للهوية العربية والإفريقية، رغم أنها تبدو في ظاهر الأمر بشكل يوحي بنوع من التقبل والشفقة، إلا أنها تحمل في طياتها حقدا

دفينا وإقصاء تام للمكون الإفريقي داخل مجتمعها،فيقول عيسى التونسي الجنسية في رواية القاهرة الصغيرة موضحا ذلك:«فهمت من البنغالي(...)لكل مهاجر مشروعه يسعى غلى تحقيقه ويضعه نصب عينه(...)بالمقابل ننظر نحن الإبطاليين إلى المهاجر على أنه مسكين يحتاج إلى الشفقة ونخلط بين المهاجرين واللاجئين الفارين من الحروب»[26].

تحيل ألفاظ(مسكين _نخلط_اللاجئ_الفار_الحرب) على حقل دلالي مضاد ومناقض لما هو مبين من طرف شخصية عيسى لكونها تأخذ أبعادا دلالية نقيضة توحي بمعجم لساني يجمع بين(الاحتقار والظلم والعنصرية والإقصاء والهمجية)، وبالتالي وضع المهاجر مرادف لكل لفظة من هذه الألفاظ.

تبين رواية البعيدون صورة المهاجر الإفريقي الذي وصفه الراوي بالغازي أو المستعمر والمنتقم على غرار رواية الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال؛ المهاجر الغازي والمنتقم من ظلم الاستعمار الأوربي واستنزافه لثروات وأراضي الإفريقي ؛ وبالتالي جاء إدريس منتقما من هذه الحضارة انطلاقا من استغلاله لإحدى الصبيات الإنجليزيات وخداعه لها ، وكأن الروائي أراد أن يوسع مشروع طريقة الانتقام من الغرب التي بدأها الطيب صالح عن طريق شخصية مصطفى سعيد ليكمل بهاء الطود مشروعه عن طريق شخصية إدريس فيقول الراوي على لسان إدريس:«لا يخطر ببالها أن غازيا إفريقيا تتقاذفه القطارات في هذه اللحظة لتلتقي به في عالمها الرحب الهادئ»[27].

وكما تشير رواية آزاتسي لمجاهد البوسيفي عن مشروع إكمال حركات المقاومة ضد المستعمر،باعتباره سببا من أسباب الهجرة وكأن الفرد الإفريقي العربي لن يتمكن من تحقيق استقلاله وحريته الحقيقية إلا باللجوء إلى الأراضي الأوربية، من أجل الانتقام للظلم التاريخي لهذه القارة الجريحة والمنهوبة، فلم تكن الهجرة نحو أوربا بعد الاستقلال إلا لسببين، الأول لأجل تحسين ظروف العيش،أما الثاني فلإكمال قضية الانتفاضة والتحرر والانتقام

للذات والهوية العربية الافريقية المسلوبة:«فهؤلاء هاجرو بعد أن ضاقت بهم سبل المعيشة، وبعد أن قامو بأدوار كبيرة في حركة مقاومة الاحتلال الطلياني»[28] .

وبقيت فكرة الخوف من المهاجر العربي والإفريقي تستبد بالفكر الغربي المتطرف ، الذي بقي ينظر إلى المهاجر نظرة سلبية فكونت أحزابا وجمعيات تنادي بمعادات الأفارقة والعرب، ورفض المهاجرين العبور على أراضيها ،لكونهم يرفضون الأجنبي ويعادون المسلمين ، ومن بين هذه الاحزاب نجد "حزب الجبهة الوطنية" الفرنسي ،وحزب"من أجل الحرية" الهولندي،وحزب"رابطة الشمال الإيطالي"، ولعل هذا ما عبرعنه عمارة لخوص في إحدى رواياته شارحا الوضع المضطرب للعلاقة العدائية والإقصائية بين الأوربيين والأفارقة:«ألا تعرفون من هو "روبرتوبوسوس"؟ إنه زعيم حزب الشمال الذي يعادي المهاجرين المسلمين، كلما أسمع صوته يراودني الشك وتستبد بي الحيرة(...)هل اللغة التي يتكلمها بوسوسو هي الإيطالية حقا؟»[29].

تعد شخصية أمبيرتو بوسي أحد مؤسسي حزب رابطة الشمال الإيطالي ذو التوجه العنصري، شخصية مثيرة للجدل كون الروائي يرى فيه أنه قد لايكون إيطالي الجنسية ، كما يعتبر فردا مهاجرا يدعو إلى الفكر العنصري ضد المهاجرين، هذه المفارقة التي توحي بعدم وضوح الرؤيا ، واستعانة الكاتب بأفكار مناقضة لتعزيز طروحاته، وإعطاء الاهمية والفاعلية للعنصر المهاجر مقابل ما يعرضه النص من متناقضات، وصور شارحة لموقف الأوربي من الإفريقي المهاجر،و المتوسل لحريته في ظل انعدامها داخل وطنه،وهنا يبقى العنصر الاستدلالي على كشف العلاقة المضطربة بين الأوربيين والأفارقة يتمثل في تيمة الهجرة كقيمة مهيمنة داخل الرواية.

خاتمة:

من خلال ماتقدم طرحه من أفكار ورؤى أعطت للهجرة بعدا سرديا وواقعيا ينم عن تشكل علاقات جديدة في نطاق محدود، يسعى الروائي من خلالها إلى إعطاء إشكالية الأنا والآخر بعدا جدليا ينم عن صراع فكري وإيديولوجي وسياسي بين الأنا الإفرقي والعربي والآخر الأوربي المتسلط.

تطرح الرواية المغاربية ثنائية الأنا الإفريقي والآخر الأوربي، ومقولة همجية العربي الإفريقي وتحضر الأوربي ،وسيادة ذهنية الإلغاء لديه والمؤامرات التي يدبرها ضد الإفريقي والاعتداءات المتكررة عليه، الأمر الذي يجعل من الحوار الحضاري مفقودا يضيع في عدوانية الأوربي واستعلائه وعدم اعترافه بالآخر أي الإفريقي بالنسبة إليه.

تطرح الرواية المغاربية مسألة الاستيلاب وضياع الفرد الافريقي في مجاراته ومناهضته للأوربي، وفقدانه لخصوصيته وهويته وحضارته ووجوده، من خلال أهم تيمة تشرح اضطراب العلاقة بين القطبين وهي تيمة الهجرة التي تشرح درجة المعاناة في بلد أوربي كان سببا فيما وصلت إليه إفريقيا وحروب وخراب ودمار أنهكت كاهل أبنائها وساساتها، فألحقت ضررا كبيرا بالنسبة لهذه القارة الجريحة، التي أصبحت تقف أمام حضارة الآخر الأوربي في موقف دهشة،لتوسع من رقعة الصراع وعبثية الحوار،ومحاولة البحث عن حضارة بديلة بمقومات هوية إفريقية وذات صلة قوية بالحضارة الأوربية.

اختلفت النصوص الروائية المدروسة في النظر إلى الآخر انطلاقا من توظيف آليات لخطاب إيديولوجي متمركز حول الذات الأوربية يدعو إلى الانفتاح على الآخر الأوربي لدرجة الانسلاخ على الهوية والتخلي عنها أمام وضع راهن يعكس مختلف التيارات والتقاطبات الثقافية التي تعكس صراعا إيديولوجيا وسياسيا محتدما، هذا مقابل تيار آخر يدعو إلى التمسك بالهوية العربية الإفريقية وضرورة الانفتاح على الآخر لكن ضمن حدود مفاهيمية مؤطرة ومشروطة بالحفاظ على مقومات ومبادئ الهوية العربية والافريقية.

ترتكز النصوص الروائية المدروسة على تصوير واقع عربي وإفريقي مضطرب وموبوء وفق توظيف خطابات متعددة أدبية وغير أدبية كالخطاب السياسي والإيديولوجي الذي يطغى عليهما الطابع التّأملي الذي يكشف عنه النّص الرّوائي، إضافة إلى أسلوب التّمنّي الذي جعل منه الروائي أسلوبا بارزا داخل النص الروائي، هذا الأسلوب القائم على طرح البديل عن الواقع الذي يحكم سلطة النّص القائمة على حوار داخلي بين الفن والواقع.

لذلك تنم النصوص الرّوائية عن فكر وتوجّه مناقض للآخر وغير محدّد، وهذا ما جعل معاني النص الروائي غير محدّدة بشكل مباشر، وإنّما هي عبارة عن رموز وإشارات زئبقيّة متحوّلة، ممّا أكسب النّص الرّوائي تعدّدا في الرّؤيا وعمق في التّأويل لهذه الرّموز التي أصبحت عبارة عن لغة مقنَعة تحاكم الواقع وتدين السّلطة بشكل غير مباشر.

لعب الرّمز دورا هامّا في ترسيخ المعايير الشّعريّة داخل النّص الرّوائي ، فلم يكن الخطاب السّيّاسي خطابا مباشرا، وإنّما اعتمد على إشارات نصّيّة تمتزج بالمعايير الجماليّة للنّص الرّوائي، حيث أصبح النّص ينمّ عن وعي جمالي، و قدرة إبداعيّة على قولبة اللّغة، لتحقق هدفا نفعيّا_ ذا بعد فنّي _ ساهم في تطوير بنية النّص ليتراوح بين الواقع والمتخيّل.

التهميش:

[1]/ مصطفى الغتيري: ليلة إفريقية ،إفريقيا الشرق، المغرب،دط،2009،ص 20

[2]/ليلة إفريقية: ص35.

[3] مدحت الجبار : النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء، القاهرة، د ط، دت، ص67.

[4]/عادل ضرغام: في السرد الروائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط2010،1،ص22.

[5] / عمارة لخوص: القاهرة الصغيرة،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1، 2010،ص ص9-10.

[6] /عمارة لخوص :القاهرة الصغيرة :ص67.

[7]/ليلة إفريقية: ليلة إفريقية ص 58

[8]/ليلة إفريقية :ص66

[9]/ليلة افريقية:ص29

[10] ليلة إفريقية: ص 32 .

[11]/عمر بن قينة: مأوى جان دولان، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1989. ص140.

[12] ليلة إفريقية: ص 37.

[13]/ ليلة إفريقية :ص 39.

[14]/ مأوى جان دولان :ص 88 .

[15] /مأوى جان دولان: ص 89 .

[16]/ مأوى جان دولان: ص 8 .

[17]/ مأوى جان دولان :ص 90.

[18]/مأوى جان دولان:ص144.

[19]/مأوى جان دولان:ص 47.

[20]/الطاهر بن جلون: أن ترحل،ترجمة: بسام حجار، المركز الثقافي العربي،بيروت،ط1، 2010 ص20.

[21]/أن ترحل:ص55.

[22]/أن ترحل:ص24.

[23]/أن ترحل أص171.

[24]/ عمارة لخوص:كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2006،2، ص78.

[25]/كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك:ص40.

[26]/القاهرة الصغيرة: ص48.

[27]/بهاء الطود: البعيدون ،دار الهلال المصرية، القاهرة،ط2،2003،ص92

[28]/مجاهد البوسيفي:آزاتسي،، منشورات ضفاف ، بيروت ، ط1 ، 2013ص128.

[29]/كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك: ص12.

المراجع:

1) بهاء الطود: البعيدون ،دار الهلال المصرية، القاهرة،ط2،2003،

2) الطاهر بن جلون: أن ترحل،ترجمة: بسام حجار، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2010.

3) مجاهد البوسيفي:آزاتسي،، منشورات ضفاف ، بيروت ، ط1 ، 2013.

4) مدحت الجبار : النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء، القاهرة، د ط، دت.

5) مصطفى الغتيري: ليلة إفريقية،إفريقيا الشرق، المغرب،دط،2009.

6) عادل ضرغام: في السرد الروائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت،ط1، 2010.

7) عمارة لخوص:كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك، منشورات الاختلاف،الجزائر،ط2،2006.

8) عمارة لخوص: القاهرة الصغيرة،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1، 2010.

9) عمر بن قينة: مأوى جان دولان، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1989.